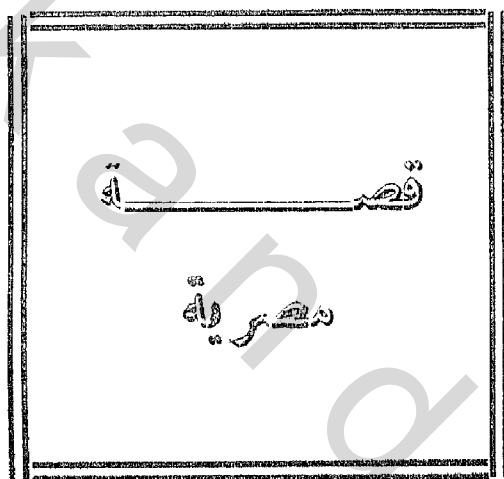




نحو أدب جديد

الخريف

قصة مصربة موضوعة

— ١ —

فتحت النافذة بيد مرتعشة فدخل منها الهواء كرجل . فغمضت احسان عينها
نصف اغاضة واستنشقت طويلا وترنحت وانطلق من صدرها المسكتنز العريض
شبه أنين ..

ثم انحنت على الحافة وطوت ذراعيها المليئين ورفعت رأسها وحدقت في الفضاء
وكانت السماء صافية الزرقة . ترصعها النجوم المتألقة ، والشارع هادئاً
والصمت عميقا ، والهواء يهز الآونة بعد الأخرى أشجار الحديقة البعيدة فيسمع
لأغصانها حفيف مقلق رهيب

واستقرت احسان في تأملاتها وانقضت فترة طويلة ..

وبرز الزنجي من منعطف الطريق عارى القدمين مرتديا بدلته الصفراء الكامدة
حاملا عصاه الطويلة يضرب في الأرض بكندى مشرد معتوه

ولوح بعصاه بغنة واعملها في المصباح فانطلقا وعم جزءا كبيرا من الشارع ظلام
فوجمت احسان وزفرت : ولسكنها استأنست بالظلمة المحيطة بها واطمأنت
وعادت تطلق لأفكارها العنان...

صوبت أنظارها إلى الشجرة السكيفة المغبرة المتمايلة عن بعد ولاح لها
عندئذ طيف عزيز . طيف جارها الجديد « أمين أفندي » الرجل الشاحب الصموت
الخرى اللون ، الرجل الملاح ، المتأنق المترفع المتحفظ ، ثم تقدم اليها على مهل ،
واستوى في بهرة خيالها واستقر هناك . فارتعشت وطربت لوجوده معها وسط

هذا الظلام وابتسمت له ولم تستطع حبس دموعها فانهمرت على خديها
غزيرة متداركة

وذكرت كيف التقت به على الدرج مرار عدة . وكيف كانت تتحرك وتتلفت
إذ تراه ، والصوت الناعم الرخيم الذي كانت تنادى به خادماتها على مسمع منه ،
وضحكاتها الطويلة المشجعة والجهد البالغ الذي طالمسا تسكفته لتودع نظراتها اليه
كل ما تسكنه طبيعتها من دلال واغراء

ولسكنه لم يكن ليحفل بها بل كان يغض من بصره ويفسح لها الطريق وينحني
في احترام قائلاً بلمحة جافة مؤدبة :

... نهارك سعيد يا هانم

وكانت لا تلبث أن تهبط إلى أقصى الدرج حتى تتلفت متطلعة اليه وترمقه
بنظرة مداعبة محرصة فتراه يشيعها بالبتسامة ما كره خفيفة مأوها التهمك والاستخفاف
فيتصاعد الدم إلى وجهها ويتزايد خفقان قلبها وتمضي في سبيلها مسرعة لا تولى
على شيء

وبالرغم من ذلك فقد كانت تحبه ، وتسكبر منه في نفسها هذا الاعراض
وتتشبث به ، وتؤمل في اجتذابه يوماً ونيل رضاه

على أن مثل هذا الحادث كان يقع لها مع معظم الرجال . فهي منذ سنتين أو
تزيد أى منذ بلغت الخامسة والاربعين من عمرها . لم تذكر أن ضحكة من ضحكاتها
استطاعت أن تخلق لب فتى . أو أن لفظة من لفتاتها صادت أى شاب ، أو أن
دعوة من دعوات عينها استجاب لها أى رجل ...

كان الجميع يتبعونها نفس النظرة العابرة . ونفس الابتسامة الخفيفة الفظيعة
بكل ما فيها من معاني السخرية والازدراء

وعبثاً تبدلت في أحاديثها ، وتهتكت في زيارتها ، وتملقت الشبان من أقاربها
وأقارب صديقاتها ، بل عبثاً حاولت العشور بينهم ولو على فتى شائع الوجه ، وضعيع
النفس ، مسلوب الكرامة . يعيرها اهتمامه وبفهم ما ترمى اليه ، ويبادلها الحب كذباً
وينخدعها وتسخر عليه بالمسال الذي يريد ...

كلا . لم يكن أحد منهم ليرثي لحاها ، أو يرضى بضياح جزءه من وقته الثمين في سبيلها ، أو يعتقد لحظة أنها كانت جميلة وصبية وفاتنة . وان نظرة واحدة من نظراتها كانت تسوق الرجال خلفها كالسكلاب ...

أين ذهب الماضي ؟ .. وهل كان له في يوم من الأيام وجود ؟ ...
لشد ما كان يحتاج اليأس أعصابها لما أن ثانت تشعر وتذكر بسليقتها أن ماضيتها المجيد لن يشفع لها ، وأنه مات واندر وانها بدنوها من الشيخوخة انما تولد من جديد وتستيقظ بغنة على حياة غريبة شريرة لاعد لها بها
وكان يروعاها من هذه الحياة أنها نقيض الأخرى وأن الناس قد اجمعوا على أن العقل فيها واجب . والحكمة زينة ، والوقار جمال ، والاستسلام لقضاء الله نعمة ، والزهد خير فضائل الجسد والروح
حياة هي في الحقيقة موت يجب أن ترضى به صاغرة ولو أنها ما تزال تتحرك وتنفس وتعيش !

ولكن كيف تقاوم . بل كيف تستسلم وتخضع وهي المخلوقة الطليقة المرحية الوثابة التي لم زق أبواها غيرها فارسلاها على سجيبتها فنشأت محبوبة مدللة .
أمرة ناهية . تنطلع الى الترف والغنى ، وتنزع الى الجمال والسلطان ، ولا تغفر لامرأة أنها أوفر منها مالا ، أو أسمى مظهراً . أو أعذب حديثاً ، أو أتم حسناً ، أو أوقع فتنة

هكذا عاشت وهكذا يجنب أن تعيش . ومحال أن ترضى بالحياة الجديدة التي تلوح لها من خلال تلك الفضائل الخبيثة العابسة كقوة غاشمة لثيمة تريد أن تغدر بها وتدفعها الى التمهيد لفنائها بنفسها !

الفناء ... نعم ... ألم يبدأ شعورها العميق به منذ أيام ... لقد دخلت صالونها فجأة فليحت لأول مرة بعض صديقاتها يتهاوسن ويتغامزن ، ويتسمن نفس تلك الابتسامة الساخرة ، وسمعت احدها تعرض بشيخوختها ثم تشيح بوجهها وتخفي اضطرابها في ضحكة حادة نفذت الى صدر إحسان كطهنة سكين !

وها هي ... هاهي (خيرية هانم) صديقتها الوفية تصر على مناداتها حتى أمام الاغراب بـ « يا أم محمود » ولا تنفك تسألها عن ابنها وكم بلغ من العمر

ولماذا هو متبرم نفور لا يكاد يبدو أمام النساء أبداً؟ ...

بل ان هذه السكنية — أم محمود — قد شاعت على السنة صويحباتها جميعا ،
وذكر ابنها والاستفسار عن صحته وتقدير سنه أصبحت أشياء عادية لا مفر
لاحسان من سماعها انى ذهبت وحيثما اتجهت ...

ولقد سمعتها بالامس .. بالامس القريب أيضا .. سمعتها في جملة لاذعة صريحة ..
ومن ؟ منه هو .. من جارها .. من أمين أفندي .. من الرجل الذى تهبده
وتهلل النفس بامكان الفوز به ، وتحرص على الظهور امامه بمظهر الصبا وتخشى
أن هى تهاونت في ذلك أن يزداد أعراضه عنها فتفقدته ! ..

تفقدته ؟ كلا .. كلا .. هذا لن يكون ! .

جالت هذه الخواطر في ذهن احسان كومضات برق خاطف
وانبعثت فجأة من زاوية قصصية في الحجرة غمغمة عقبها زفير فخطيط
فتقلصت شفتا احسان واستدارت وانصت قليلا ثم تحولت وهزت أكتافها
وبصقت في الشارع ...

وهبت نسيمات لطيفة جففت دمع عينيها فتنهدت تنهدة طويلة وتحسست
بيدها غلبة السجائر الموضوعة على المنضدة المحاذية للنافذة فتناولتها وأخذت
منها سيجارة وأشعلتها وبدأت تشتف منها بنهم وترسل ذوائب دخانها المعقدة
في الفضاء

وامتنع الخطيط بغثة ، وتقلب جسم ضخيم قلق فاهتزت أعمدة السرير وانطلق
من جوف الحجرة صوت أبح هزيل يقول فى لهجة متوسلة خائفة :
— احسان .. انت جنبى والا لا ؟ ... ليه ... ليه فتحت الشباك ؟ والنبي
تقفلى .. اقفللى احسن آخذ برد ..

فرمت احسان بسيجارتها ، وأغلقت النافذة فى عنف ، ومشيت الى سريرها
متباطئة متثاقلة ، فاستلقت عليه وعقدت أصابعها خلف رأسها ومضت تنبش
بعينيها الطلام

ومرت برهة طويلة

وعاد الخطيط يدوى اشبه بخوار ثور فبدأت دقات قلب احسان وتحفزت

وأملت قدميها بحذر واستندت الى ذراعها ثم انسلت من الفراش واستوت واقفة ترقب حركات زوجها وتزن وقع غطيته لتستوثق من انه ان يفيق وبعد لحظة سارت بخطى وثيدة وقلبها يخفق ويدها ترتعشان مادة ذراعها تشق بهما الظلمة كما يشق السابح الماء . ولكن ردفا الثقيل العريض اصسطدم بمصراع الباب فصر صريراً مزججا فتمهلته وتنفست ثم استطردت السير على أطراف قدميها مندهشة من نفسها مبهوتة لا تعلم على وجه التحقيق ما الذي أقامها ثانية ولأى سبب تسعى وعلام كل هذا الاحتراس وأى شيء ألم بها الليلة ؟ ...

ولسكنها مع ذلك خرجت من الحجرة واجتازت دهليزا قصيرا وبلغت احد الابواب ففتحته في رفق ودخلت . ثم رفعت يدها وتلمست مكان الزر فادارته فسطع النور فجأة وملاً أرجاء الغرفة . فاجفلت احسان وتراجعت خطوة ووقفت ...

وكان في الغرفة ثلاثة أسرة . احدها صغير ممددة عليه فتاة ، وآخر كبير يرقد فيه صبيان ، وثالث ضيق طويل كحففات الجرحى أو أسرة المستشفيات يضم جثمان شاب رائع الحسن على الجبهة . اسود الشعر ، دقيق الجاجين ، تلقى اهدابه الطويلة على وجنتيه المتوردتين ظلاً متراقصاً بديعاً

وكانت الغرفة مكسوة حيطانها بالورق الاحمر عليه رسم زهرات كبيرة سوداء اوراقها ذهبية الاطراف لامعة

وكانت في احدى الزوايا صينية مستديرة من اس اصفر - نقشت عليها رسوم مصرية قديمة - تقوم على قاعدة خشبية قصيرة وتحمل اطباقاً بعضها قدر حط عليه الذباب فيه فضلات طعام وفتات خبز وقشور فاكهة فقطبت احسان حاجبها وتقدمت توا نحو السرير الضيق الطويل وحدقت في الشاب الراقد ثم انحنت تتفرس فيه ...

وراعها منه وضوح قسماته ، وانتظام أنفاسه ، وظل أهدابه ، وابتسامة الحلم الحائرة على شفثيه والجمال الهادىء الواصل المنسكب عليه . فضمت شفثيها وتولتها رعدة ...

وعلى حين فجأة حانت منها التفاتة فأبصرت قدمي الشاب مشوقتين ناصعتين لم

تجدا لهما في السرير المستطيل متسهما فتدلنا خارجه فهزت احسان رأسها وأنعمت
النظر في القدمين العاريتين وصرت اسنانها وانبعثت من فمها المجدد زفرة ...
واستدارت كأنما تحركها قوة خفية ومشيت بقدم ثابتة فاطفأت الأنوار ثم
عادت الى فراشها واستلقت عليه وحاولت أن تنام ...
وبرغم أنها أدركت الآن سر ذلك الباعث الذي حفزها لترك سريرها
والذهاب الى حجرة أولادها متسللة كاللص الخذر ، وبرغم الراحة الغريبة التي
أحس بها فقد ظلت حائرة مذهولة تغالب الارق عينا ولم تستطع اغماض عينيها
إلا بعد ان نفذت الى الغرفة أولى أشعات الشمس !

— ٧ —

استفاق الزوج نحو الساعة السابعة ونادى بصوته البائس الوجل :
— احسان ...

فلم يحبه أحد . فد عنقه المحتقن الغليظ فأبصر زوجه مستغرقة في سباتها فتأوه
وتأمل وفرك عينيه المنتفختين فتلوثت أصابعه بالمادة الصديدية اللزجة فد شفته
اشمئزأ ومسحها بكم جلابيته ثم انحنى وجعل يبحث تحت السرير عن جواربه
وهو ينفخ نفخات الضجر وعدم الاصطبار
وتناول المنشفة وذهب يغسل وجهه ثم قفل راجعا على أطراف قدميه فتمشط
وتطيب وبحركة آلية حطت يده المعروقة الغليظة على مقعد صغير وأخذت
النظارة وثبتتها على أنفه

ومضى يرتدى في بطنه ملابسه مبتسما لنفسه في المرأة ، متحسسا ذقنه الحليقة
بيده ، راضيا عنها ، مفسكرا في مردوسيه في الديوان . وفي عظيم احترامهم له ، وفي
لذة العبث بهم . بل في لذة الرعب الذي سوف يبدو على وجوههم ويعقد أسننتهم
لما ان يدق الجرس ويستقدم واحدا منهم ويحاول التهويش عليه ناسبا اليه مالم
يفعل أو مبالغا في تقدير نتائج هفوة بسيطة بدرت منه ...

وابتسم لنفسه في المرأة ثانيا وأمال طربوشه وأحكم وضعه ثم حمل منشته
البيضاء وخرج يتهادى الى فناء الدار .
وجاءته الخادم بأطباق الفول المدمس والبيض والمربة والقشدة فأكل بشهية

وشرب ثم تراخى فى مقعده لحظة وتجشأ ومسح يديه بالموطاة واستوى واقفا
وقال بلمجة متزنة جميلة :
— على بركة الله .
وانصرف الى الديوان

استيقظت احسان نحو الساعة المباشرة مصدوعة الرأس . ملبدة الذهب .
منهوك القوى . فأسرعت من فورها الى الحمام وأرسلت الدوش على بدنها الخامل
تجلى بالماء البارد أعصابها ، وتستفر دماغها وتنضر بشرتها الرخوة الباهتة . ولم
تسدد تخرج وتتناول طعام الافطار حتى كانت قد استعادت نشاطها تماما فجلست
الى منضدة التواليت وبدأت جهادها المقدس اليومى . . .
وكان أولادها فى الحجرة النائية يضحون ويمرحون ، وصيحاتهم المتعالية
الحادة تحتل بقمقماتهم البريئة الرنانة وتحنق الصرخات المذعورة المؤنبة التى كانت
ترسلها فى الآونة بعد الأخرى « دادا الزام » بلمجتها الزنجية المضحكة .
وغمست احسان أصابعها فى حق صغير — وكان عليها ان تقوم بهذا الجزء
من مهمتها ليلة أمس ولكنها أهملت . . . — وأمرت الدهان الأبيض الناعم على جلد
خديها الخشن وتوخت مواضع التجاعيد فجعلت تدلكها وتسويها وترققها ثم
عمدت الى شعرها الاشقر بفعل الأوكسيجينيه فضمخته بالعطر وصففته وكستته
بشبكة خاصة ليتسق ويتساوى
وانطلقت بغثة صيحة مزعجة عقبها بكاء طويل فاهتاجت إحسان وتطلعت الى
الباب قائلة :

— برضك بتضرب مصطفى يا محمد . . . والنبي حاجى أه وتك . . .

فسمع صوت منتحب رقيق يقول :

— دا محمود اللي ضربنى . . .

فلمع بصر احسان وارتجفت وصرخت :

— محمود ؟ . . . الله . . . الله ياسى محمود كان بتشطر على الواد الصغير . . .

يا أبو طويله . . . يا وحش . . . دا مصطفى برقبك ، ، سامع . . . برقبك كلكم

وساد الصمت ا

واستأنفت احسان عملها وهى تزفر...

وأمعنت فى ذلك خديها حتى جف الدهان ثم كحلت عينيها وخططت حاجبيها
وطالت وجنتيها وشفتيها بالحجرة وتفرست فى تقاطيع وجهها فى المرآة . وخامرها
بغثة إحساس مبهم بالخيرة ...

شهرت شعوراً غامضاً ، طالما عكر عليها اصباحها ، أنها كانت فيما مضى أمهر
فى تطايع وجهها منها الآن . كانت تدرك بسليقتها مقدار ما تحتاج اليه وجنتها
وعيونها من أصباغ ، وتسن وضعها والتوفيق بينها بحيث يبدو جمالها كأنما هو
طبيعى أصيل . اما اليوم فقد اضطرب بصرها واختلطت عليها الظلال والالوان
ولم تعد تدرى أجب أن تخطط حاجبيها أيضاً أم ترقق منهما ، وتكسو خديها
بطبقة حمراء اخرى أم أن فيما وضعتها الكفاية ...

واستولى عليها شعور عميق بالكمد والحسرة . وصعدت نفساً مستطيلاً
واطرفت هنيهة . وفيما هى تفكر تحركت أصابعها ببطء ومن تلقاء نفسها تصاعدت
كأصابع عمامة تنلمس أدوات الزينة ثم امتدت إلى حق الحرة الصغير وجعلت
تلكم على خديها الطلاء ...

ورنت أحسان بطرفها الى المرأة فبهتت .. بهتت .. إذ خيل اليها أن يحياها
أصبح غضاً متألماً جميلاً كأنما قد دب فى أصابعها سحر ساحر استطاع أن يرد
عنها كيد القضاء فافترت شفتاها عن ابتسامة هائلة ثم أمالت رأسها وصعرت
خديها وذكرت وهى تهزأ من نفسها ومن خوفها أن ماوقع لها الآن هو عين
ماوقع بالأمس وأنها ما تزال جميلة ، وأن ما أتت بها الساعة من حيرة وحسرة كان
محض خيالات وأوهام ...

وولد فيها هذا الاحساس على غير عادة شعوراً قويا بالكبرياء والسلطان ،
وإيماناً مطلقاً بجمالها ، ورغبة جنونية فى التمتع بهذا الجمال وحمايته من كل خطر
وإذ ذاك لاح لها مرة اخرى طيف امين افندى مقترنا بطيفها وهو يخترق الحجرات
ويتسلل تحت جناح الظلام كلص ، فانقدت عيناها واستسر جبينها ونهضت لفورها
ومشت الى حجرة ابنها محمود ...

— ٣ —

وكان محمود مستلقيا على كنبه معتمدا رأسه بيده يطالع في كتاب وخصلات شهره الاسود الناعم النزير تتدلى على جبهته العاليه الناصعة وتشوش على عينيه الرماديتين القاتمتين البديعتين فيردها الى الخلف بحركة عصبية رشيقه فيطافر معصمه العارى من كم بيجامته الفضفاض ابيض املس ساطعا كشماع من نور

وكان جسمه المتسق النحيل مددا في رخاوة حاملة كغصن لين حى . تلفه بيجامته الرقيقة البنية اللون ، وبرز منها وينعكس عليها ههنا وهناك . بياض وجهه ويديه وقدميه كاضواء ساحرة موزعة على هذا البدن الغض

وكان منهمكا في المطالعة واصابعه في فمه يقرض اظافره باسنانه واهدابه الطويلة ترف اللحظة بعد الاخرى وعيناه البديعتان لا تفارقان صفحة الكتاب .

ودخلت أحسان الغرفة واسكنها وقفت وقد انعقد لسانها !

لم يشعر بها ولبثت هى في مكانها شاخصة اليه تهن رأسها هذا متواصلا خفيفا وتعوض على شفيتها الغليظة السفلى . . .

وحانت منه التفاتة فابصرها فمرت على وجهه سحابة . ثم اعتدل في جلسته ودفع الكتاب برفقه والقى حواليه نظرات محيرة شاردة ولم يتكلم . فتقدمت اليه على مهل وقالت بصوت حاولت جهدها خنق الرعدة التى تتمشى فيه :

- مين قال لك تضرب مصطفى ؟ . . .

فلم يرفع اليها طرفه وقال وهو يقرض اظافره :

-- اعمل ايه . . . يلعب ويزعق ويضرب اخوه كان . . . وأنا . . . عايز اقرأ ..

فتضامت أجفانها واسرعت انفاسها ودنت منه خطوة وقالت :

-- وكان بتقول انك ضربته ؟ ..

فلوح محمود بذراعيه وقال :

-- دانا أول الماسته راح معيط . . . دا واد كداب ومدلع وقليل الادب . .

فصاحت وهى تتراجع :

-- ايه ؟ . . . ايه ؟ . . . ايه ؟ . . .

فردد محمود وهو يشيح بوجهه .

... أيوه ... كذاب ومدلع و ...

فقاطعته احسان وضحكت نصف ضحكة ساخرة صفراء اهتز لها صدرها
اهتزازاً شهوياً مخجلاً وقالت :
... النبي ؟ ...

فوجهم محمود وصمت . والكنها اقتربت منه ووضعت يديها في خصرتها
وتمايلت ذات اليمين وذات اليسار ثم انفجر بغته غضبها الهائل السكظيم فانفتحت
عينها وحملت في انبها وقدح منهما الشرر وانطلقت تصرخ وقد برزت تقاطيع
وجها القاسي دميمة شريرة مخيفة تقبض عليها وتعصرها الغضون :

... هو انت أبوه لما تضربو ؟ ياخي كسر ايدك وكل ايد تتمد عليه ... دا
برقتك ... وإلا عامل هنا ريس ياسى محمود ... ياخي جاك نيله ... جاك نيله ...
امال لو كنت نجحت في الشهادة كنت عملت ايه ؟ .. كنت تدبح بسيفك ؟ .. مش كده
ياخايب ؟ .. اكلم . اكلم .. خرس ليه ؟ ..

وكانت ، ممسكة بذراعه تهزه هزاً عنيفاً وهو مستسلم لها ، ورأسه المطرق الذليل
يتطوح وفق حركتها ، وشعره اللامع يتناثر ، ووجهه الصبوح يقطر دماً وعينه
الخامدة المظلمة لا تجسر على رفع بصرها مخافة ان تلتقي بهيون منيرة ومصطفي
« و داد التزام » والخادم والطباخ الذين اقبلوا جميعاً على صراخ احسان واصطفوا
خلفها يشهدون الحادث وظلم صامت مضطرب وجل !
وتلفت احسان ورمقتهم بنظرة صارمة شاذة وقالت :
... فيه ايه ؟ ... ياللا .. كل واحد لشغله ..

وانصرف الطباخ وتبعته الخادمة وهي تنظر الى محمود خلسة وتكاد تتعثر
بالمقاعد وتسقط ...

وأشارت دادا التزام إلى الاولاد بالخروج وتقدمتهم وهي تمس شفتيها
مصداً متواصلاً اظهار لشفقتها وحزنها .

وتخاف مصطفى ودار على نفسه وصفر ثم اقترب من اخيه وأمر سبابته على
انفه كعادته في اغاظة البكم وقهقهه مسروراً بفوزه ومضى يعدو خلف التزام

وظن محمود أن احسان ستلحق بهم ولسكنها ظلت مكانها تجيل الطرف في
أنحاء الغرفة وتلوى أصابعها وتلهث كمن يبحث بفارغ الصبر لأعصابه المتهاجة
عن غذاء

وفجأة وقم بصرها على أشياء تلمع ملقاة في زوايا بعيدة فما أن رأتها حتى
أومضت عينها فاستدارت وأسرعت إليها ومدت ساقها البدينة ودفعت بأعقاب
السجائر إلى وسط الحجرة وانحنى لتلقطها ثم استوت وقد تدفق الدم إلى وجهها
وكرت على ولدها صائحة صياحا ابج مزججا :

— كان .. بترى السجائر على الأرض ... الأرض الممسوحة الصبح ...
الأرض إلى انضف من .. وشك يا .. يا وسخ ... يا قليل الترتيب ...

وانطلقت تجوب أنحاء الغرفة كهتوهة وأبصارها المحددة المنقبة تأخذ الأشياء
أخذا في لمحات سريعة تستحث ثوران أعصابها ، وتشيع في صوتها الغلظة
والحسرة ، وتصب في عباراتها من هجر القول وفشه ما كانت تحس له لذة تفوق
لذة الغضب والتشفي

ورأت قميصا مدلى على حافة السرير بقرب الحائط فاخطتته ، وصديريا ملقى
على السكينة خلف محمود فاخطتته ايضا وجوارب مطروحة بجوار المكتب فالتقطتها
وجاءت تلوح بها جميعا امام الشاب وهى ترعد وتردد :

— يا قليل الترتيب ... هى دى أودة مكتب .. دى مزبلة .. هنا ... الحاجات دى
محلها هنا ...

ومضت تعلق الصديري والقميص على المشجب ، وتضع الجوارب في درج
الخزانة ، وتحكم التعليق والوضع ، وتطوف بالغرفة منتقلة من السرير إلى المشجب
فالخزانة فالمكتب ترتب الأشياء وتنظمها وهى تزفر ، وقد غص وجهها بالعرق
وتساقطت نقطه المالحه في عينيه فدمعنا ، وسال السكحل واختلط بالحجرة على خديها
فبات منظرها مزريا غريبا يبعث في النفس الخوف والضحك والاشمئزاز
وكان الاولاد قد عادوا فاجتمعوا خلف الباب ولم يجسروا على الدخول فاطلت
رؤوسهم المترنحة من فوق بعضها البعض وفي مقدمتها رأس مصطفى المستدير الصغير

بشعره المموج الباهى الذى تسميه إحسان شعر اولاد الملوك
ولم يفارق بصر محمود الارض طوال فترة ثوران والدته .
وكان يلمح اقدامها فقط . . . اقدامها الكبيرة الثقيلة المنتفخة بعض الشيء ذات
العروق الناتئة والجلد الرخو ، تقفز وتتراكض ك اقدام صبية نشطة وتولد فى
نفسه ضربا من الدهول يمازجه الاعجاب والرعب
ولم تكن هذه اول مرة احتمل فيها محمود من صرامة والدته وخطورتها وضيق
ذهنها وولعها الجنونى بالنظافة والنظام ماضيق عليه فى البيت افق حياته واغراه
بالهزلة والتأمل والصمت
فقد كان معتادا كل هذا وكان قد بدأ يشعر به ويدهش له ويتقيه منذ ثلاث
أو اربع سنوات . .

اجل منذ ثلاث أو اربع سنوات وهذه المرأة — التى كانت مثال الحب
والعطف والحنان ، التى كانت تعبد عبادتها لمصطفى الان — لا تنفك تحوم حواليه
وتبت العيون عليه ، وتطارده ، وتحاسبه على البسطهفواته ، وتهد عليه مسراته
وتتمحين الفرص لتأنيبه ولومه كأن لا شاغل لها فى الحياة الاه ولا هم إلا ان
تهكر عليه صفو عيشه . .
اجل كانت تسرف الى ولده فى الشكوى منه ، وتبالغ فى وصف اخطائه وتوغر
صدر زوجها المطواع الضعيف حقدا عليه ، ولما ان رسب فى امتحان البكالوريا
جعلت تشهر بغباته وتندد بكسله وترشقه بالنكات اللاذعة وتهيره
كانت تأبى الخروج بصحبته الى المخازن او الملاهى كأن فى سيره او جلوسه
بقربها اكبر عار لها . . .

بل لقد حرمت عليه أخيرا الظهور فى صالونها امام صديقاتها الموانم ، وكان
مجرد اجتيازه الردهة يوم « المقابلة » الماضى ووقوع بصر احدى الزائرات عليه
كافيا لنعته من والدته بأبشع النعوت ورميه بالوقاحة والسفالة وانحطاط الخلق . .
ولقد حدث منذ شهر ، ذات مساء وباب الصالون مغلق والنسوة فى الداخل
يمزحن ويتصاحكن ان خطر لمحمود ان يدنو من الباب وينصت برهه الى ما يقطن ،
ولشد ماددهش إذ سمع احسان تمتدحه . وتشددو بحبها له وتغرق فى أطباب سجايها

وترسم منه صورة كاملة للاخلاق الفاضلة وتقسم اغلاظ الايمان انه لم يبلغ
الثامنة عشر بل انه ما يزال صغيرا ، وان جسمه اكبر من سنه ، وانه لم يناهز بعد
ربيعه الخامس عشر . . .

حار الفتى في تحليل هذا التناقض والكذب ولكن شعوره بالاضطهاد كان قد
احاله سوداوى المزاج ، متبلد العقل . كثيف الدهن ، متجمعا مستوحشا نفورا
لا يتكلف عناء التفكير الطويل فيما يحيط به ولا مشقة الاهتمام الجدى بدروسه
بل ينطوى على نفسه وياوذ بصمته ويحتمى في عزلته ولا يلتبس السعادة في غير جلسة
هادئة يقضيها مع ابن عمه كمال او رواية غرامية يطالعها او حديث موجز قلق
يتبادل - في غفلة عن والدته - مع الخادمة الفلاحة « ام سطوحى » التى حملته
بين ذراعيها ، وارضعته من ثديها - بذات الضحكة الناضرة الحية والصوت المرتعش
الذليل ، والعيون الحفرة السود التى لا تمكاد تتطلع اليه حتى يرتجف ويراها تترد
كليلة كأنما هى قد حدثت في الشمس ! . . .

تلك كانت حياته التى فيها ولم يعد يتبرم بما فيها من استبداد ونبد ومهانة
وازدراء ، وتلك كانت والدته التى لم يعد يدرى هل هى فى الحقيقة والدته وهل
هو حقا ولدها أم انه - كما يصور له خياله المضطرب الساذج - شريد أولقيط أو
ابن سفاخ أو ابن مطلقة زانية عهد به والده الى هذه المرأة القاسية تربيته وتقتص
منه للجرم الفاضح الذى استولده !

قد يكون هذا ؟ . . لم لا . . لقد طالما عصفت برأسه هذه الفكرة وبرحت
به وأقصت مضجعه وشرذته في الطرقات حيران مهموما بائسا ، يرتاد بيوت
الدعارة ليلا بمفرده ولا يستريح الا الى معاشرة بعض البغايا الطاعنات في السن
اللواتي يخيل اليه انهن هادئات رقيقات لطيفات على شئ . من ذلك الحنان العميق
العذب الذى عبثا حاول بمعسول الكلام ، وحلو النظرات ، والتفانى في الطاعة
والخضوع ، احياءه في قلب احسان

وها هى نفس الفكرة تحتل خياله الآن وتنتشر في رأسه وتنمو . . الآن
لا سيما الآن . . اذ هو لم يرقط احسان بالصورة التى يراها عليها الآن . .
أجل كانت تضطهده ولكن تحت ستار المسكر والخديعة - باصابات متباعدة ،

ووخزات خفية . وضروب من اللؤم ماهرة وافانين من الحيل تستنبطها لفورها وتحسن حبكها ولا تنفذها الى مشربة بالحيلة ، مغممة بالتحقير وعدم الاحتفال تلك كانت طريقتهما في التنكيل به واخضاعه وانزاله على حكمها في كل ما تريد ولكنه لم يشهد منها أبدا هذا الشر الصريح المخبول ، وهذه القسوة الفظة المنسكرة . ان في صرخاتها لبغضا ظاهرا فظيما لم يعده فيها من قبل وان في حركاتها ولفاتها لارادة واضحة في الحاق أشد صنوف الأذى به ، بل ان في عينيهما المحمومتين لبارقة عزم جديد مخيف . . . ترى ؟ ما الذي يحول بخاطرها وماذا تريد منه ؟ . . . كلا . . . ليست هي احسان كما أنها ليست والدته . لقد تنكر كل شيء فيها . انها لوحش . وحش هائل كربه في صورة امرأة طالما ضمه الى صدرها وهو طفل واسمته خفقان قلبها ، وطالما روى حواسه من عطرها النقيح ومن أريج بدننها المخنق المسدر الحار . . .

ورفع بصره الحالم اليها والتوت زاوية فمه النائي القرمزي في ابتسامة مسكينة متوسلة مزرقة ، وارتجفت أهدابه الطويلة فالقت على خديه ظلالها القائمة الساحرة وبسط كفيه ، وأشرأب بعنقه ، وحاول جهده أن يتكلم ولكن الألفاظ اختنقت في حلقة فغمغم غممة لا معنى لها .

وبان اذ ذاك رائع الجمال ، روعة فاجمة الية لم يسبق لاحسان ان أحسب بها فشتخصت اليه وارتجفت ، وخيل اليها ان جسمها كله ينحل ويتهاوى ، وان روحها تهفو اليه ، وانها تدنو بوجهها منه وتسبل عينيهما في نشوة غريبة وتفتح شفيتها لتقبله . . .

وشعر منها بهذا العطف الفجائي فنهض ولكنه ما أن استوى على قدميه واتجه نحوها وأبهرته رجلا . . . رجلا كاملا جميلا مديد الجسم عريض الكتاف ، مفتول العضل بمشوق القد . أعلى قامة منها ومن والده حتى زايلتها النشوة ولمعت عيناهما ودفعته عنها بغلظة وعنف وصاحت :
— إبعد ! . .

فخدق فيها مبهورا ، وفغرفاه كأبله وتراخت ذراعاها وسقطتا .
وفي تلك الساعة . في تلك الساعة فقط ، استطاع ان يقرأ في عينيهما كل ماكنه
٥ - م - الفكر الحديث

له من حقد وبغض . وثان هذه الصيحة وتلك الدفقة قد هزته من شغله
وأيقظته من سباته وبددت السحب المتكاثفة حوله فاحس بضياء وهاج يغمر عقله
ولس الحقيقة عارية وفطن الى كل شيء وأدرك ما يجب عليه فعله وما تريد احسان
منه ولا تجسر على مصارحته ولا مصارحة نفسها به فتتهقر بعض خطوات ثم
أطرق واختلج وبكى

واكتفت احسان بما رأت وهزت كتفها وخرجت مسرعة

وفي المساء أعد محمود حقيته ولم يودع (أم سطوحى) وانسل من باب
الحديقة الخلفى دون ان يشعر به أحد
ومضت سنة طويلة وهم لا يعلمون الى أين ذهب

